بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة الحضارة الإسلامية

تأليف الشيخ

ناصر بن حمد الفهد



بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

هذه المذكرة جواب عمَّن...

- جعل حضارة الإسلام؛ هي النبوغ في علوم الفلاسفة والملاحدة.

- وجعلها هي تشييد المباني وزخرفة المساجد.

- وجعل علماء الإسلام؛ هم الملاحدة - كابن سينا والفارابي ونحوهم -

أسأل الله تعالى أن ينفعهم بها.

وصلى الله على محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد...

فإن الفتن في هذه الأزمان قد تتابعت كقطع الليل، وأحييت معالم الدَّهْمَاء، وأثير نقع الفتن واستوري زناد الهَزَاهِز:

إذا لهب من جانب باخ شره ذكا لهب من جانب فتضرما

ولكن مستثار الفتنة وعرصة غيِّها؛ هو فيما حازه الكفار من زخارف الدنيا التي فَتَحها الله عليهم، فإنها قد بلبلت كثيراً من المسلمين، فمنهم من انسلخ عن دينه والعياذ بالله؟ ومنهم من بقي حائراً، ومنهم من ثبت على دينه على دَخَنٍ، ومنهم من لم يرفع بهذه الفتنة رأساً ولم يلق لها بالاً وثبت على دينه ثبات الجبال الرواسي.

والمقصود هنا؛ فريق من المسلمين ثبتوا على دينهم، ولكنَّ نقعاً من هذه الفتنة أصابهم، وذلك أنهم حاولوا إبراز محاسن الإسلام للكافرين، وأن المسلمين كانوا في حضارة وعلم من جنس حضارتهم وعلومهم، فهؤلاء صحت ألفاظهم وأخطأت معانيهم، فالإسلام هو دين الحق والعلم والحضارة، ولكنها حضارة غيرُ الحضارة وعلمٌ غير العلم.

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرقٍ ومغرب

فحضارتهم دنيوية زائلة، وحضارة المسلمين دينية نبوية باقية، وعلومهم دنيوية دنيه، وعلوم المسلمين شرعية ربانية:

سلفيةٌ سنيةٌ نبويةٌ ليسوا أولي شطحٍ ولا هذيانِ

وقد كتبت هذا البحث ونقلت فيه كلام الأئمة الأعلام حول هذا الموضوع، وقسَّمته إلى أربع فصول:

فالفصل الأول: عن الحضارة الإسلامية وعلاقتها بالعلم الشرعي.

والفصل الثاني: عن العلوم الدنيوية التي قيل إن المسلمين برعوا فيها وحكمها شرعاً.

والفصل الثالث: عن العلماء المسلمين الذين قيل إنهم برعوا في هذه العلوم وحكمهم شرعاً.

والفصل الرابع: عن الشبهات التي قد ترد حول هذا الموضوع وردها.

هذا وما كان في هذا البحث من صواب؛ فمن الله، والحمد لله على ذلك، وما كان فيه من خطأ؛ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله.

وأخيراً...

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به من قرأه.

وصلى الله على محمد

الفصل الأول
الحضارة الإسلامية والعلم الشرعي

إن الحضارة الإسلامية الصحيحة؛ هي التي وجدت في القرون المفضلة، في وقت الصحابة والتابعين، وأئمة الدين، فريق الهدى، وأشياع الحق، وكتائب الله في أرضه، الذين بلغوا من الدين والعلم والقوة غاية ليس وراءها مطلع لناظر، ولا زيادة لمستزيد، ففتحوا البلدان، وشيدوا الأركان، ودانت لهم الأمم، وتداعت لهم الشعوب.

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا　　　وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

هم الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[1].

أولئك هم (أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علوماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً)[2].

وهم النجوم لكل عبدٍ سائرٍ　　　يبغي الإله وجنة الحيوانِ
وسواهم والله قطّاع الطريق　　　أئمةٌ تدعو إلى النيرانِ

فَمن كان مفاخراً؛ فليفاخِرْ بهم، ومن كان مكاثراً؛ فليكاثِرْ بهم، فدينهم هو الدين، وعلمهم هو العلم، مكّن الله لهم في الأرض ففتحوا الدنيا وحكموا العالم في مدةٍ لا يبلغ فيها الرضيع أن يفطم.

قال الذهبي رحمه الله تعالى: (واستولى المسلمون في ثلاثة أعوام على كرسي مملكة كسرى وعلى كرسي مملكة قيصر، وعلى أمَّي بلادهما، وغنم المسلمون غنائم لم يسمع بمثلها قط من الذهب والحرير والرقيق فسبحان الله العظيم الفتاح)[3].

وقبل انتهاء جيل الصحابة رضوان الله عليهم؛ كانوا قد فتحوا من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً، وذلك قضل الله يؤتيه من يشاء.

[1] رواه الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنهم.
[2] رواه سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه.
[3] تاريخ الإسلام: ص159.

ثم إن المسلمين لم يزلْ أمرهم في إدبار بعد القرون المفضلة وقوتهم في ضعف، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم من البعد عن الدين والتعلق بأذيال الكافرين.

لذلك فاعلم؛ أن الدين ما انتهجه السلف، والعلم ما طلبوه، وما سوى ذلك فلا خير فيه.

فصل

وفي هذه الأزمنة التي أتت بكل عجيب؛ ظهر قوم بهرتهم زخارف بني الأصفر وبلبلت أفكارهم وفهومهم، فشعروا - لبعدهم عن الحق - بنقص إزاء ما يرونه، فهبوا إلى التاريخ يقلبون أوراقه لعلهم يجدون فيه ملجأً أو مغاراتٍ أو مدَّخلاً يسترون فيه هذا النقص، فطووا ذكر القرون المفضلة لأنهم يعلمون أنه ليس فيها لشفرتهم محزّا، ولا لبغيتهم طائلاً، وأمعنوا النظر في دويلات البدع والضلالة، فأخرجوا منها زبالات التاريخ وحثالات المسلمين ممن تفلسف وتزندق وألحد في دين الله، فلمَّعوا وجوههم الكاحلة، ونفضوا عنها الدَرَن والنتن، وهيهات هيهات "هل يصلح العطّار ما أصلح الدهرُ؟"، فبارزوا بهم الكفار، فكانوا بحقٍ كعبدٍ صرعه أَمَةٌ، وكالمستجير من الرمضاء بالنار.

طلبت بك التكثيرَ فازددتُ تلةً وقد يخسر الإنسانُ في طلبِ الربحِ

فهرفوا بما لم يعرفوا، فما كلامهم إلا خطل، وما حديثهم إلا هَذَر، وقديماً قيل: "مَنْ أكثرَ أهجَرَ".

فالإسلام لم ينضب معينه من أفذاذ الرجال، ولا من الأئمة الأعلام، حتى يكون بحاجةٍ إلى كلّ موقوذة ومترديةٍ ونطيحةٍ ينازل بهم المسلمون والكافرين.

ولكن النكتة في ذلك؛ أن هؤلاء القوم إنما أرادوا مبارزة بني الأصفر بعلومٍ من جنس علومهم، وهذه العلوم لم يبرع فيها من المسلمين إلا الملاحدة، وغفلوا أو تغافلوا عن قوله تعالى: {كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا} [سورة الإسراء: 20]، وهذا من عطائه سبحانه، والدنيا يعطيها الله لمن يحب ويكره، ولكن الدين لا يعطيه الله إلا لمن يحب، وإلا فهذه العلوم لا تدل على حق ولا تمنع من باطل، بدليل أنك لو جمعت ما عند ملاحدة اليونان والمسلمين من هذه العلوم ثم قارنتها بما عند الكافرين اليو؛م لما بلغت عشر معشارها.

والنقص إنما يشعر به من ابتعد عن جادة الدين، وإلا فمن سلكَ الجَدَد؛ أَمِنَ العثار.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه، كان إلى الكمال أقرب، وهو به أحق، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق، والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان اتّبع لما يأمر الله ورسوله

وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك)[4] .

ولو أمعنوا في دراسة التاريخ؛ لاتضح لهم جلياً إن المسلمين لم يضعفوا ويتسلط عليهم الكفار والتتار والباطنية وغيرهم إلا بعد انتشار مثل هذه العلوم والعلماء بين المسلمين.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي، وتعوضوا عنه بكلام البشر، فالمغرب؛ لما ظهرت فيهم الفلسفة والمنطق واشتغلوا بها استولت النصارى على أكثر بلادهم وأصاروهم رعية لهم، وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق؛ سلط الله عليهم التتار فأبادوا أكثر البلاد الشرقية واستولوا عليها، وكذلك في أواخر المائة الثالثة وأول الرابعة لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد؛سلط الله عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات واستولوا على الحاج واستعرضوهم قتلاً وأسراً)[5] .

[4] المجموع: 4/11.
[5] إغاثة اللهفان: 602/2.

فصل

فالعلم؛ هو العلم الشرعي، وهو الذي دل عليه القرآن والسنة وكلام السلف لا علوم الفلاسفة والملاحدة.

وفي الحديث: (العلم ثلاثة وما سوى ذلك فضل؛ آية محكمة، وسنة متبعة، وفريضة عادلة)[6].

وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: (العلم ما جاء به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فما كان غير ذلك فليس بعلم)[7].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً، وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعاً، وإما أن لا يكون علماً وإن سمي به، ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه)[8].

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى: (فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث... في ذلك غاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع اشتغل)[9].

وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال؛ حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

وكلام أهل العلم في هذا كثير جداً، وفيما نقلت كفاية إن شاء الله تعالى.

---

[6] انظر ذلك بالتفصيل في "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبد البر: 2/29 -50.
[7] فضل علم السلف على علم الخلف: ص59.
[8] المجموع: 10/664.
[9] السابق: ص63.

فالحاصل:

إن الحضارة الإسلامية لا تقاس بعمران الدنيا ولا بعلومها، فإن المسلمين لما اشتغلوا ببناء القصور الفارهات، وبتعلّم الفلسفة والمنطق والطبيعيات، وركنوا إلى الدنيا واستهانوا بالعلوم الشرعيات؛ رماهم الله بالدواهي والمصيبات، فالفهمَ الفهمَ، فإن الإسلام لم يأتِ لعمارة الدنيا إلا بالطاعات.

والله أعلم، وهو الموفق للصالحات.

الفصل الثاني
العلوم الدنيوية التي قيل إن المسلمين برعوا فيها

تمهيد:

لم تنتشرْ هذه العلوم والتي تسمى بـ "علوم الأوائل" عند المسلمين وتظهر بصورة كبيرة إلا في وقت المأمون، الذي أمر بترجمة كتب اليونان في الفلسفة والحكمة وغيرها، فأدخل بفعله هذا على المسلمين شراً لا يزال أثره إلى اليوم.

لذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (إن الله لن يغفل عن المأمون ما أدخله على المسلمين بترجمة تلك الكتب).

وقال: (ثم طُلبت كتبهم - أي الفلاسفة - في دولة المأمون من بلاد الروم، فعُرِّبت ودرَّسها الناس، وظهر سبب ذلك من البدع ما ظهر)[10] اهـ.

ونصوص العلماء في ذم فعل المأمون هذا كثيرة، ولكن الذي يزيد الأمر ضغثٌ على إبّارة؛ أن أولئك القوم يجعلون عصر المأمون هذا من أعظم العصور الإسلامية علماً وفتحاً على المسلمين - إن لم يكن أعظمها على الإطلاق - بسبب هذه الترجمة.

ولك أن تقارن إن أردت الحق في ذلك بما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما فتحت فارس وجد المسلمون فيها كتباً كثيرة، فاستشاروا عمر فيها، فأمرهم بإحراقها، وقال قولته العظيمة: (إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً فقد كفاناه الله)، فأحرقت كلها أو طرحت في الماء.

فريقان منهم سالكٌ بطنَ نخلةٍ   وآخر منهم سالكٌ نجدَ كبكبِ

وكأني بأولئك القوم؛ يحاولون أن يكّذبوا، أو على الأقل يخفوا هذه الرواية وهذا الخبر، حتى لا يسمع به الغرب والكفار خير مؤيد للإسلام بأنه دين الجهل، وأنه عدو للعلم والعلماء، ولكن...

ما ضرَّ تغلب وائل أهجوتها أم بلت حيث تناطح البحرانِ

[10] المجموع: 84/2.

فالإسلام هو الإسلام، لا يغيره تأويل جاهل، ولا تكلّف أحمق، وحكم الإسلام في هذه العلوم واضح جلي ذكره العلماء، وسوف أنقل فيما يأتي بعض هذه العلوم وبعض ما قيل فيها، والله المستعان.

علم الفلسفة[11]:

وهو منبع الضلالة، ومنجم الباطل، قد عشّش به الشيطان وضرب فيه قباب، حرّمه جميع المحققين من العلماء، ومَنْ تعلمه وأدمن النظر فيه لم يسلم من الإلحاد، ودين أهل هذا العلم هو الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أبطلوا النقول، وخالفوا المعقول، وأضلوا الأمم.

قال ابن الصلاح رحمه الله تعالى: (الفلسفة رأس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة، والبراهين الباهرة، ومن تلبّس به علماً وتعليماً قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأي فنٍ أخزى منْ فنٍ يعمي صاحبه – أظلم قلبه – عن نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم... وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، والسلف الصالحين، وسائر من يقتدى به من أعلام الأئمة وسادتها، وأركان الأمة وقادتها، قد برّأ الله الجميع من معرّة ذلك وأوناسه، وطهرهم من أوضاره)[12] اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فالزندقة والإلحاد عند هؤلاء جزء من مسمى الفلسفة أو شرط... فلا مبدأ عندهم ولا معاد ولا صانع ولا نبوة ولا كتب نزلت من السماء تكلم الله بها، ولا ملائكة تنزلت بالوحي من الله سبحانه، فدين اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خير وأهون من دين هؤلاء)[13] اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (والفلاسفة هم الذين أفسدوا أهل الملل قبلنا مللهم وتواريخهم)[14].

[11] الفلسفة القديمة تحتوي على سبعة علوم، هي على ترتيبهم: المنطق ثم الارتماطيقي – علم العدد – ثم الهندسة ثم الهيئة – علم الفلك والنجوم – ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الإلهيات، ولكل واحدٍ فروع، وانظر لتفصيل وشرح هذه العلوم؛ "مقدمة ابن خلدون": ص478 وما بعدها.
[12] الفتاوى: ص70.
[13] إغاثة اللهفان: 595/2.
[14] المجموع: 140/5.

وقال: (كان هؤلاء المتفلسفة إنما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين، كالقرامطة والباطنية الذين ركّبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس وأظهروا الرفض، وإنما ينفقون في دولة جاهلية بعيدة عن الإيمان، إما كفاراً أو منافقين، كما نفق مَنْ نفق منهم على المنافقين الملاحدة)[15] اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

والفيلسوف وذا الرسول لديهم ... متفاوتان وما هما عدلان[16]
أما الرسول ففيلسوف عوامهم ... والفيلسوف نبي ذي البرهان
والحق عندهم ففيما قاله ... اتباع صاحب منطق اليونان
ومضى على هذي المقالة أمة ... خلف ابن سينا فاغتروا بلبان
منهم نصير الكفر في أصحابه ... الناصرين لملة الشيطان
إخوان إبليس اللعين وجنده ... لا مرحباً لعساكر الشيطان

علم الكيمياء[17]:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وحقيقة الكيمياء إنما هي تشبيه المخلوق، وهو باطل في العقل، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو سبحانه لم يخلق شيئاً يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما خلق... وأهل الكيمياء من أعظم الناس غشاً ولهذا لا يظهرون للناس إذا عاملوهم إن هذا من الكيمياء... فجماهير من يطلب الكيمياء لا يصل إلى المصنوع الذي هو مغشوش باطل طبعاً، محرم شرعاً بل هم يطلبون الباطل الحرام... ولم يكن في أهل الكيمياء أحد من الأنبياء ولا من علماء الدين ولا من مشايخ المسلمين، ولا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان وأقدم من يحكى عنه شيء في الكيمياء خالد بن يزيد بن معاوية[18] وليس هو ممن يقتدي به المسلمون في دينهم

[15] المجموع: 176/9.
[16] يعني: متساويتان.
[17] الكيمياء في السابق؛ يختلف عن كيمياء اليوم – بعض الشيء – لأنها في السابق كانت تُعنى بتحويل النحاس ونحوه إلى الذهب والفضة، وكانت قرينة للسحر والسيمياء، أما اليوم؛ فلا يزال تحويل المواد من مادة إلى أخرى باقية فيه، ولكنها اتسعت لتشمل الصيدلة وعلومها الدوائية والتركيبات والمحاليل وغيرها.
[18] نسب البعض إلى "خالد بن يزيد" صناعة الكيمياء وعلمها، وهو باطل رواية ودراية، فأما الرواية: فإن الذهبي رحمه الله تعالى ذكر أن هذا الخبر لا يصح [سير أعلام النبلاء: 383/4]، وكذلك ذكر ذلك ابن الأثير [الأعلام: 300/2]، وكذلك نسبها شيخ الإسلام إليه بصيغة التضعيف: (يحكى)، وكذلك نسبها ابن كثير كذلك فقال: (وينسب إليه شيء من علم الكيمياء) [البداية والنهاية: 80/9]، فأما الدراية؛ فأولاً: تقدم عصره في وقت الصحابة والتابعين، وقبل الترجمة، وثانياً؛ أن أبا زرعة وابن حبان والذهبي وابن كثير أثنوا على صلاحه ودينه ووثقوه [السير: 382/4، البداية: 80/9، التهذيب:

ولا يرجعون إلى رأيه... وأما جابر ابن حيان؛ صاحب المصنفات المشهورة عن الكيماوية فمجهول لا يعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم ولا بين أهل الدين)[19] اهـ.

ثم قال: (والكيمياء أشد تحريماً من الربا)[20].

وقال: (إن الكيمياء لم يعملها رجل له في الأمة لسان صدقٍ، ولا عالم متبع، ولا شيخ يقتدى به ولا ملك عادل، ولا وزير ناصح، وإنما يفعلها شيخ ضال مضل).

ثم قال: (وأيضاً فإن فضلاء أهل الكيمياء يضمون إليها الذي يسمى "السيمياء"، وهو السحر... فإنك تجد "السيمياء" التي هي من السحر كثيراً ما تقترن بالكيمياء، ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن السحر أعظم المحرمات، فإذا كانت تقترن به كثيراً، ولا تقترن بأهل العلم والإيمان بل هي من أعمال أهل الكفر والفسوق والعصيان) اهـ.

وقد قال الذهبي رحمه الله تعالى في "مسائل طلب العلم وأقسامه": (فصل: ومن العلوم المحرمة: علم السحر والكيمياء والسيمياء والشعبذة والتنجيم، والرمل وبعضها كفر صراح)[21] اهـ.

وقد نعت ابن خلدون في مقدمته[22]؛ الكيميائيين بأنهم يشتغلون بالسحر والطلسمات، وأنكر هذا العلم وأبطله.

وفيما نقلت كفاية إن شاء الله تعالى في بيان حقيقة هذا العلم وحكمه.

علم الفلك:

علم الفلك قسمان:

الأول: هو معرفة منازل القمر والنجوم والمطالع وغيرها مما يعين في معرفة القبلة والاهتداء في البر والبحر ونحوها، وهو ما يسمى بـ "علم التسيير".

111/3]، ولو كان كيميائياً ما استحق هذا الثناء، وثالثاً؛ تفنيد ابن خلدون لهذا الكلام عقلاً في مقدمته [ص505]، والله أعلم.

[19] المجموع: 398/29، وما بعدها.

[20] المجموع: 378/29.

[21] ص 214.

[22] ص 496، وما بعدها.

الثاني: هو الاستدلال بالحوادث الفلكية على الحوادث الأرضية وادعاء معرفة الغيب، وهو ما يعرف بـ "التنجيم"، ويسمى "علم التأثير".

فالقسم الأول تنازع العلماء في جوازه، فمنهم من حرمه سداً للذريعة ومنهم من كره تعلمه، ومنهم من أجازه - وهم الجمهور - فإذا كان هذا الأمر في "علم التسيير" فما بالك بالتنجيم، فإن العلماء جميعاً على حرمته وإبطاله شرعاً وعقلاً.

وفي الحديث: (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: (فعلم تأثير النجوم محرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر، وأما علم التسيير فإذا تعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفته القبلة والطريق كان جائزاً عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه وهو يشغل عما هو أهم منه وربما أدى التدقيق فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين، في أمصارهم كما وقع ذلك كثيراً من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً وذلك يفضي إلى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار، وهو باطل، وقد أنكر الإمام أحمد الاستدلال بالجدي، وقال: "إنما ورد؛ ما بين المشرق والمغرب قبلة")[23] اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (إن النجوم نوعان، حساب وأحكام، فأما الحساب؛ فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب، وصفاته ومقادير حركاتها وما يتبع ذلك، فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه كمعرفة الأرض وصنعتها ونحو ذلك، لكن جمهور التدقيق فيه، كثير التعب قليل الفائدة، كالعالم مثلاً بمقادير الدقائق والثواني والثوالث في حركات السبعة المتحيرة... أما الأحكام؛ فهي من جنس السحر...)[24] اهـ[25].

فإذا وعيت ما مضى، فاعلم أن جميع علماء الفَلَكِ المسلمين الذين يفاخر بهم المحَدثون - فيما أعلم - إنما هم منجمون كهان، كالخوارزمي وابن البناء والطوسي وآل شاكر والمجريطي وغيرهم - عافانا الله وإياكم مما ابتلاهم به -

فن العمارة:

أما العمارة فليست من الإسلام في شيء.

[23] فضل علم السلف: ص35.
[24] المجموع: 181/35.
[25] انظر فتح المجيد: ص316 وما بعدها، الزواجر: 109/2.

فقد روى البخاري وغيره عن خباب رضي الله عنه مرفوعاً: (إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفعه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (وقد ورد في ذم البناء صريحاً ما أخرج ابن أبي الدنيا من رواية عمارة بن عامر: "إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع نودي: يا فاسق إلى أين؟"، وفي سنده ضعف مع كونه موقوفاً، وفي ذم البناء مطلقاً حديث خباب يرفعه قال: "يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب"، أو قال: "البناء"، أخرجه الترمذي وصححه، وأخرج له شاهداً عن أنس بلفظ: "إلا البناء، فلا خير فيه"، وللطبراني من حديث جابر يرفعه قال: "إذا أراد الله بعبدٍ شراً، خضَّر له في اللبن والطين حتى يبني"، ومعنى "خضّر"؛ حسّن، وزناً ومعنى... الخ ما قال رحمه الله تعالى)[26] اهـ.

ولكثرة الأحاديث التي تذم البناء ورفعه؛ كان المحدِّثون رحمهم الله تعالى يعقدون أبواباً عن البناء وما ورد فيه.

لذلك فإن عمر رضي الله عنه لما اختط الكوفة أمرهم ببناء بيوتهم من قَصَب، فلما وقَع فيها الحريق، استأذنوه في بنائها بالحجارة، فقال: (افعلوا، ولا يزيدنّ أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة).

وهكذا كان عهد الراشدين والسلف، وهذه هي "العمارة الإسلامية".

وأما قصور الزهراء وغرناطة وقرطبة ودمشق الفيحاء وبغداد والقاهرة وزخرفة جوامعها ومساجدها؛ فليست عمارة إسلامية، بل إن من الإفتيات والكذب على الإسلام أن ينسب إليه ما نهى عنه وزجر، ولكنه التعلق بزهرة الحياة الدنيا، والله المستعان.

واكتفى بما ذكرته من العلوم وما قاله العلماء فيها، وإلا فإن العلوم الدنيوية كثيرة وكلام العلماء فيه كثير -كالموسيقى والشعر والحيل وغيرها-

والله أعلم

[26] فتح الباري: 95/11.

الفصل الثالث
العلماء المسلمين الذين قيل إنهم برعوا في تلك العلوم

تمهيد:

سوف أذكر في هذا الفصل قائمة بأشهر العلماء، الذين يهيج المعاصرون بمدحهم والثناء على خلائقهم وذكر فضائلهم، وأذكر ما قاله أئمة الإسلام فيهم وفي عقائدهم، وقد تركت منهم أكثر مما ذكرت، لأن القصد التنبيه لا الحصر، وقد رتبتهم على حسب الوفاة.

والله المستعان.

ابن المقفع – عبد الله بن المقفع – [ت: 145 هـ]:

كان مجوسياً فأسلم، وعرّب كثيراً من كتب الفلاسفة، وكان يتهم بالزندقة.

لذلك قال المهدي رحمه الله تعالى: (ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع)[27].

جابر ابن حيان [ت: 200 هـ]:

أولاً: إن وجود جابر هذا مشكوك فيه.

لذلك ذكر الزركلي في "الأعلام" في الحاشية على ترجمته[28]: (إن حياته كانت غامضة، وأنكر بعض الكتاب وجوده).

وذكر أن ابن النديم أثبت وجوده ورد على منكريه، وابن النديم هذا ليس بثقة – كما سيأتي إن شاء الله –

[27] انظر سير أعلام النبلاء: 208/6، البداية والنهاية: 96/10، لسان الميزان: 449/3.
[28] الأعلام: 103/2.

ومما يؤيد عدم وجوده ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله: (وأما جابر بن حيان صاحب المصنفات المشهورة عند الكيماوية؛ فمجهول لا يعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم والدين)[29] اهـ.

ثانياً: ولو أثبتنا وجوده، فإنما نثبت ساحراً من كبار السحرة في هذه الملة، اشتغل بالكيمياء والسيمياء والسحر والطلسمات، وهو أول من نقل كتب السحر والطلسمات - كما ذكره ابن خلدون[30] -

الخوارزمي - محمد بن موسى الخوارزمي - [ت: 232 هـ]:

وهو المشهور باختراع "الجبر والمقابلة"، وكان سبب ذلك - كما قاله هو - المساعدة في حل مسائل الإرث، وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ذلك العلم؛ بأنه وإن كان صحيحاً إلا أن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره[31].

والمقصود هنا؛ إن الخوارزمي هذا كان من كبار المنجّمين في عصر المأمون والمعتصم الواثق، وكان بالإضافة إلى ذلك من كبار مَنْ ترجم كتب اليونان وغيرهم إلى العربية[32].

الجاحظ - عمرو بن بحر - [ت: 255 هـ]:

من أئمة المعتزلة، تنسب إليه "فرقة الجاحظية"، كان شنيع المنظر، سيء المخبر، رديء الاعتقاد، تنسب إليه البدع والضلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال، حتى قيل: (يا ويح من كفّره الجاحط).

حكى الخطيب بسنده؛ أنه كان لا يصلي، ورمي بالزندقة، وقال بعض المعلماء عنه: (كان كذاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس)[33].

ابن شاكر - محمد بن موسى بن شاكر - [ت: 259 هـ]:

[29] مجموع الفتاوى: 374/29.
[30] المصدر السابق، وانظر مقدمة ابن خلدون: ص496 - 497.
[31] انظر مجموع الفتاوى: 214/9 - 215.
[32] انظر تاريخ ابن جرير: 24/11، البداية والنهاية: 308/10، عيون الإنباء في طبقات الأطباء: ص483، حاشية1.
[33] انظر البداية والنهاية: 19/11، لسان الميزان: 409/4.

فيلسوف، موسيقي، منجّم، من الذين ترجموا كتب اليونان، وأبوه موسى بن شاكر، وأخواه أحمد والحسن؛ منجمون فلاسفة أيضاً[34].

الكندي – يعقوب بن اسحاق – [ت: 260 هـ]:

فيلسوف، من أوائل الفلاسفة الإسلاميين، منجّم ضال، متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة، بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه[35].

عباس بن فرناس [ت: 274 هـ]:

فيلسوف، موسيقي، مغنٍ، منجّم، نسب إليه السحر والكيمياء، وكثر عليه الطعن في دينه، واتهم في عقيدته، وكانٍ بالإضافة إلى ذلك شاعراً بذيئاً في شعره مولعاً بالغناء والموسيقى[36].

ثابت بن قرة [ت: 288 هـ]:

صابئ، كافر، فيلسوف، ملحد، منجّم، وهو وابنه إبراهيم بن ثابت وحفيده ثابت بن سنان؛ ماتوا على ضلالهم.

قال الذهبي رحمه الله تعالى: (ولهم عقب صابئة، فابن قرة هو أصل الصابئة المتجددة بالعراق، فتنبه الأمر)[37].

اليعقوبي – أحمد بن اسحاق – [ت: 292 هـ]:

رافضي، معتزلي، تفوح رائحة الرفض والاعتزال من تاريخه المشهور، ولذلك طبعته الرافضة بالنجف[38].

الرازي – محمد بن زكريا الطبيب – [ت: 313 هـ]:

[34] انظر الأعلام: 117/7، عيون الإنباء: ص283.
[35] انظر لسان الميزان: 373/6، مقدمة ابن خلدون: 331، مجموع الفتاوى: 186/9.
[36] انظر المغرب في حلي المغرب: 333/1، المقتبس من أنباء أهل الأندلس: ص 279 وما بعدها، نفح الطيب: 348/4، الأعلام: 264/3، ومما يدل على رداءة عقله أيضاً محاولته تقليد الطيور في طيرانها؟!
[37] انظر المنتظم: 29/6، سير أعلام النبلاء: 485/13، البداية والنهاية: 85/11.
[38] من دراسة قمت بها لتاريخه المشهور "تاريخ اليعقوبي".

من كبار الزنادقة الملاحدة، يقول بالقدماء الخمسة الموافق لمذهب الحرانيين الصابئة – وهي الرب والنفس والمادة والدهر والفضاء – وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وصنّف في مذهبه هذا ونصره، وزندقته مشهورة[39] – نعوذ بالله من ذلك –

البتّاني – محمد بن جابر الحراني الصابئ – [ت: 317 هـ]:

كان صابئاً.

قال الذهبي: (فكأنه أسلم).

فيلسوفاً، منجّماً[40].

الفارابي – محمد بن محمد بن طرخان – [ت: 339 هـ]:

من أكبر الفلاسفة، وأشدهم إلحاداً وإعراضاً، كان يفضّل الفيلسوف على النبي، ويقول بقدم العالم، ويكذّب الأنبياء، وله في ذلك مقالات في انكار البعث والسمعيات، وكان ابن سينا على إلحاده خير منه، نسأل الله السلامة والعافية[41].

المسعودي – علي بن الحسين – [ت: 346 هـ]:

كان معتزلياً، شيعياً.

قال شيخ الإسلام عن كتابه "مروج الذهب": (وفي تاريخ المسعودي من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فكيف يوثق في كتاب قد عرف بكثرة الكذب؟)[42] اهـ.

المجريطي – مسلمة بن أحمد – [ت: 398 هـ]:

فيلسوف، كبير السحرة في الأندلس، بارع في السيمياء والكيمياء، وسائر علوم الفلاسفة، نقل كتب السحر والطلاسم إلى العربية، وألف فيها "رتبة الحكيم" و "غاية

[39] انظر في بيان مذهبه ونقضه؛ مجموع الفتاوى: 304/6 – 309، مع منهاج السنة: 209/1 وما بعدها، وانظر أيضاً المجموع: 114/4، والمنهاج: 353/1، 279/2، ودرء التعارض: 346/9.
[40] انظر سير أعلام النبلاء: 518/14.
[41] انظر على سبيل المثال؛ الفتاوى 86/2، 99/4، 57/11، 572، وغيرها، وانظر درء التعارض في كثير من المواضع، وانظر أيضاً إغاثة اللهفان: 601/2 وما بعدها، و البداية والنهاية: 224/11، والمنقذ من الضلال: ص98، وكثير من المواضع في نونية ابن القيم، وغيرها من كتب أهل العلم.
[42] انظر منهاج السنة: 84/4، سير أعلام النبلاء: 569/15، لسان الميزان: 258/4.

الحكيم"، وهي في تعليم السحر والعياذ بالله، {وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}، نسأل الله السلامة[43].

مسكويه – محمد بن أحمد – [ت: 421 هـ]:

كان مجوسياً، فأسلم، وتفلسف، وصحب ابن العميد الضال، وخدم بني بويه الرافضة، واشتغل بالكيمياء فافتتن بها[44].

ابن سينا – الحسين بن عبد الله – [ت: 428 هـ]:

إمام الملاحدة، فلسفي النحلة، ضال مضل، من القرامطة الباطنية، كان هو وأبوه من دعاة الإسماعيلية، كافر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم بالآخر[45].

مساوئ لو قسمن على الغواني   لما أمهرن إلا بالطلاق

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أو ذلك المخدوع حامل راية الـ   إلحاد ذاك خليفة الشيطان
أعني ابن سينا ذلك المحلول من   أديان أهل الأرض ذا الكفرانِ

ابن الهيثم – محمد بن الحسن بن الهيثم – [ت: 430 هـ]:

من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علماً وسفهاً وإلحاداً وضلالاً، كان في دولة العبيديين الزنادقة، كان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات[46].

---

[43] انظر مقدمة ابن خلدون: 496، 504، 513.

[44] انظر تاريخ الفلاسفة المسلمين: 304 وما بعدها.

[45] انظر سير أعلام النبلاء: 531/1 – 539، إغاثة اللهفان: 595/2 وما بعدها، البداية والنهاية: 42/12 -43، فتاوى ابن الصلاح: 69، نونية ابن القيم: 14، 30، 43، 49، 160، 186 وغيرها، ومجموع الفتاوى: 85/2، 133/9، 228، 571/17، 223/32، 133/35، وأكثر درء التعارض، رد عليه وعلى الفلاسفة، وكذلك المنهاج، وانظر المنقذ من الضلال: ص98، وغيرها من الكتب.

[46] انظر فتاوى شيخ الإسلام: 135/35، وانظر درء التعارض: 281/2، وانظر ما كتبه من الحاديات في مذكراته – وهو في آخر عمره، نسأل الله الثبات – في تاريخ الفلاسفة: ص270.

ابن النديم – محمد بن اسحاق – [ت: 438 هـ]:

رافضي، معتزلي، غير موثوق به.

قال ابن حجر: (ومصنفه "فهرست العلماء" ينادي على مَنْ صنفه بالاعتزال والزيع، نسأل الله السلامة)[47] اهـ.

المعرّي – أبو العلاء أحمد بن عبد الله – [ت: 449 هـ]:

المشهور بالزندقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفي أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين.

ذكر ابن الجوزي أنه رأى له كتاباً سماه "الفصول والغايات في معارضة الصور والآيات"، على حروف المعجم، وقبائحه كثيرة.

قال القحطاني رحمه الله تعالى:

تعسَ العميُّ أبو العلاء فإنه   قد كان مجموعاً له العَمَيانِ[48]

ابن باجه – أبو بكر بن الصائغ، محمد بن يحيى – [ت: 533 هـ]:

فيلسوف كأقرانه، له إلحاديات، يعتبر من أقران الفارابي وابن سينا في الأندلس، من تلاميذه ابن رشد، وبسبب عقيدته حاربه المسلمون هو وتلميذه ابن رشد[49].

الأدريسي – محمد بن محمد – [ت: 560 هـ]:

كان خادماً لملك النصارى في صقليه بعد أن أخرجوا المسلمين منها، وكفى لؤماً وضلالاً.

وفي الحديث: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين).

[47] انظر لسان الميزان: 83/5.
[48] انظر المنتظم: 148/8، البداية والنهاية: 72/12 – 76، وقد نقل كثيراً من أشعاره الإلحادية، لسان الميزان: 218/1، نونية القحطاني: 49.
[49] انظر عيون الأنباء: 515 وما بعدها، تاريخ الفلاسفة: 79 وما بعدها.

ابن طفيل – محمد بن عبد الملك – [ت: 581 هـ]:

من ملاحدة الفلاسفة والصوفية، له الرسالة المشهورة "حي ابن يقظان"، يقول بقدم العالم وغير ذلك من أقوال الملاحدة[50].

ابن رشد الحفيد – محمد بن أحمد بن محمد[51] – [ت: 595 هـ]:

فيلسوف، ضال، ملحد، يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع، ويقول بقدم العالم وينكر البعث، وحاول التوفيق بين الشريعة وفلسفة أرسطو في كتابيه "فصل المقال" و "مناهج الملة"، وهو في موافقته لأرسطو وتعظيمه له ولشيعته؛ أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد انتصر للفلاسفة الملاحدة في "تهافت التهافت"، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، والحادياته مشهورة، نسأل الله السلامة[52].

ابن جبير – محمد بن أحمد – [ت: 614 هـ]:

صاحب الرحلة المعروفة بـ "رحلة ابن جبير"، ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور والمشاهد الشركية، وتعظيمه للصخور والأحجار، واعتقاده بالبدع والخرافات وغيرها كثير[53].

الطوسي – نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن – [ت: 672 هـ]:

نصير الكفر والشرك والإلحاد، فيلسوف، ملحد، ضال مضل، كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين، حاول أن يجعل كتاب "الإشارات" لابن سينا بدلاً من القرآن، وفتح مدارس للتنجيم والفلسفة، وإلحاده عظيم، نسأل الله العافية.

---

[50] انظر درء التعارض: 11/1، 56/6.

[51] تنبيه: ابن رشد الحفيد غير الجد، فالجد؛ محمد بن أحمد بن رشد [ت: 520 هـ]، قاضي الجماعة بقرطبة من أعيان المالكية، له "المقدمات" و "البيان والتحصيل"، أثنى عليه الذهبي وغيره [السير: 501/19].

[52] انظر درء التعارض: 11/1 - 127 - 152، 210/6، 237، 242، 181/8، 234 وغيرها، و منهاج السنة: 356/1 وغيرها، وفي عدة مواضع من الفتاوى، و سير أعلام النبلاء: 307/21، و تاريخ الفلاسفة: ص120 وما بعدها.

[53] تلخيص لدراسة أعددتها عن رحلته المشهورة بـ "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"، وهو على علاته أفضل من ابن بطوطة في كثير من الأمور، منها أن تعظيم المشاهد والقبور لم يستغرق رحلته كان بطوطة، ومنها عفته عن سماع الأغاني والملاهي وحضور مجالسها ورؤية النساء والأكل بأواني الذهب وعدم استجدائه للسلاطين، بخلاف ابن بطوطة في ذلك كله.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وكذا أتى الطوسي بالحرب الصر يح بصارم منه وسل لسانِ
عَمَرَ المدارس للفلاسفة الألى كفروا بدين الله والقرآنِ
وأتى إلى أوقات أهل الدين ينقلها إليهم فعل ذي أضغانِ
وأراد تحويل "الإشارات" التي هي لابن سينا موضع الفرقانِ
وأراد تمويل الشريعة بالنواميس التي كانت لدى اليونان
لكنه علم – اللعين – بأن هذا ليس في المقدور والإمكانِ
إلا إذا قتل الخليفة والقضاة وسائر الفقهاء في البلدانِ[54]

ابن البناء – أحمد بن محمد – [ت: 721 هـ]:

شيخ المغرب في الفلسفة والتنجيم والسحر والسيمياء[55].

ابن بطوطة – محمد بن عبد الله – [ت: 779 هـ]:

الصوفي، القبوري، الخرافي، الكذّاب، كان جل اهتماماته في رحلته المشهورة؛ زيارة القبور والمبيت في الأضرحة، وذكر الخرافات التي يسمونها "كرامات" وزيارة مشاهد الشرك والوثنية، ودعائه أصحاب القبور وحضور السماعات ومجالس اللهو، وذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل بعض البقاع، وتقديسه للأشخاص، والافتراء على العلماء الأعلام، وغير ذلك[56].

[54] انظر إغاثة اللهفان: 601/2 وما بعدها، درء التعارض: 67/5 - 78/6 - 44/10 وما بعدها 590، الفتاوى: 92/2 - 93 وما بعدها، البداية والنهاية: 267/13 وغيرها.

[55] انظر مقدمة ابن خلدون: ص115 وما بعدها.

[56] تلخيص لدراسة أعددتها عن رحلته، وسبب نعتي له بأنه "كذّاب"، لأنه كذب كذباً فاضحاً على شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وهو أنه رآه ينزل من المنبر ويقول؛ "إن نزول الله إلى السماء الدنيا كنزولي هذا"، وهو يذكر أنه قد دخل دمشق في رمضان من سنة 726 هـ، وشيخ الإسلام في ذلك الوقت مسجون في القلعة منذ شعبان، وهذا دليل على افترائه عليه.

الفصل الرابع
الشبهات التي قد ترد حول هذا الموضوع وردها

قد ترد بعض الشبهات حول هذا الموضوع، وربما يكون من أهم هذه الشبهات ما يأتي:

الشبهة الأولى: أن هؤلاء العلماء وإن كانوا ملاحدة، إنما برعوا في علومهم، لأن بيئتهم بيئة إسلامية علمية صحيحة، هيّأت لهم المناخ المناسب للتفوق العلمي، فلنا علومهم، وعليهم إلحادهم.

الشبهة الثانية: إننا إذا ذكرنا براعة هؤلاء العلماء، إنما نؤكد للعالم اليوم إن الإسلام هو دين العلم والحضارة، وإذا تركنا ذكرهم من أجل عقائدهم؛ نقص جانب كبير ومهم من الحضارة الإسلامية.

الشبهة الثالثة: إن الكفار اليوم على حق لوجود هذه اليوم بأيديهم ولتفوقهم فيها.

الشبهة الرابعة: إن الكفار إنما انتصروا على الإسلام لوجود هذا التفوق العلمي لديهم.

الشبهة الخامسة: إن المسلمين انهزموا وذلوا لجهلهم بهذه العلوم و "تخلفهم" عن ركب الحضارة العلمية.

فصل

جواب الشبهة الأولى

فأما الشبهة الأولى فجوابها من وجوه...

فالوجه الأول:

إن هذه العلوم أصلاً - بصرف النظر عن علمائها - لا تمت إلى الإسلام بصلة - كما سبق بيانه - فتسقط هذه الشبهة جملة وتفصيلاً.

والوجه الثاني:

إننا لو سلمنا بـ "إسلامية" هذه العلوم، فإننا لا نسلم وجود البيئة الإسلامية الصحيحية التي هيّأت "المناخ المناسب"، بل إن الواقع يشهد بخلاف ما ذكر، فإنه كما أن الحشرات لا تكثر إلا في مواضع الرمل والقمامات، فإن هؤلاء العلماء لا يكثرون إلا في دويلات البدع والضلالات.

وإليك بعض الأمثلة التي تؤيد ما ذكرت؛ فالخوارزمي وآل شاكر؛ ظهروا في دولة المأمون المعتزلي، وابن سينا وابن الهيثم؛ ظهرا في دولة العبيديين الزنادقة، والفارابي؛ ظهر في دولة الحمدانيين الرافضية، ومسكويه؛ في دولة البويهيين الرافضية، وابن رشد؛ في أول دولة الموحدين الأشعرية المهديّة، وهكذا.

والوجه الثالث:

لو سلمنا بأن البيئة إسلامية صحيحة، وعلمية سليمة، فكيف يبرع العالم في أتفه الأمور وأخسها، وينحرف في أعظم الأمور وأهمها على الإطلاق، وهو أمر دينه؟!

والوجه الرابع:

إن كون البيئة إسلامية علمية صحيحة لا يسوّغ المفاخرة بهؤلاء الملاحدة، وإن ساغ ذلك عند أحد؛ فليسع عنده أيضاً المفاخرة بيهود ذلك الوقت ونصاراه ومجوسه الذين في الدولة الإسلامية، والذين برعوا في نفس العلوم، وهم كثير، لأنهم في نفس البيئة الإسلامية العلمية الصحيحة! وعندها يختلط الخاثر بالزُّباد، والرغوة بالصريح، ولا يكون للدين معنى، ولا للإسلام قيمة.

فصل

جواب الشبهة الثانية

وأما الشبهة الثانية؛ فجوابها من وجوه أيضاً...

فالوجه الأول:

إن دعوة الكفار إلى الإسلام لا تكون بتكلّف المحالات، وتزييف الحقائق، فننسب إلى الإسلام ما هو منه براء، لنرغب الكفار فيه، وإلا فلا فرق بين من يفعل ذلك وبين من يضع الأحاديث في الزهد والرقائق ليرغب الناس في الصالحات، ويقول؛ أنا أكذب للرسول ولا أكذب عليه!

وإنما تكون دعوتهم كما كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لكفار زمانه، ببيان التوحيد وذم الشرك ونحوه مما ورد عنه وثبت، فإن دخل الكفار بهذه الدعوة إلى الإسلام؛ فلله الحمد، وإن لم يدخلوا فيه وأصروا على باطلهم ورموا الإسلام وشتموه، فلا ضرر عليه من كلامهم، بل هم...

كناطح صخرة يوماً ليوهنهافلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وعلى المسلم أن يتمثل في ذلك بقول الشاعر:

وما كل كلب نابحٍ يستفزني   ولا كلما طنّ الذباب أراعُ

والوجه الثاني:

أن يعلم – أصحاب هذه الشبهة – أن المسلمين إنما فتحوا الدنيا وملكوها بعدل عمر وفقه معاذ وحديث أبي هريرة وزهد أبي ذر وشجاعة خالد، ولم يفتحوها ب "إشارات" ابن سينا ولا ب "حادي" الرازي ولا ببصريات ابن الهيثم ولا بموسيقى الفارابي:

هيهات بين اللؤم بون والكرمْ   أبعد مما بين بصري والحرمْ

بل ما بدأت عزة المسلمين تذهب إلا بعد انتشار هؤلاء وأمثالهم – كما سبق بيانه –

والوجه الثالث:

أن هذه الشبهة منقوضة طرداً وعكساً...

أما طرداً؛ فإن أصحاب هذه العلوم من ملاحدة المسلمين إنما استفادوها من اليونانيين، فإن كان في ملاحدة المسلمين "المعلم الثاني"؛ الفارابي، ففيهم "المعلم الأول"؛ أرسطو، وإن كان في ملاحدة المسلمين "الأب الثاني" للطب؛ ابن سينا، ففيهم "الأب الأول"؛ أبقراط، وإن كان في ملاحدة المسلمين "بطليموس الثاني"؛ ابن الهيثم، ففيهم "بطليموس الأول"، وهكذا، وكان الفضل للمتقدم.

ثم إن قلتم؛ إن المسلمين طوروا هذه العلوم، فإن ما طوره الكفار اليوم ووصلوا إليه من الصناعات المذهلة التي طيّروا بها الحديد، وكلموا الجماد، وبنو الشاهقات، وأخرجوا عجائب المخترعات، ليفوق أضعاف أضعاف أضعاف ما طوره أولئك.

فإن قلتم؛ بأن هذه العلوم إنما تدور مع الحق حيثما دار، فقد صحّحتم عقائد الكافرين أولاً وأخيراً.

وإن قلتم؛ إنها لا تدل على حقٍّ فهي هنا وهنا، قلنا؛ وهذا ما نبغي، فلم الفخار بعلمٍ لا يدل على حقٍ، وبعلماء ابتعدوا عن الحق؟!

وأما عكساً؛ فإننا لا نجد في وقت قوة المسلمين وعزتهم في القرون المفضلة لهؤلاء الملاحدة ذكر، ولا لعلومهم مجال، وإنما انتشرت حين بدأت تزول الحضارة الإسلامية، أو قل؛ إنها عندما انتشرت بدأت تزول الحضارة الإسلامية، فإن انتشار هذه العلوم وزوال النعمة متلازمان.

والله أعلم

فصل
جواب الشبهات الثالثة والرابعة والخامسة

وأما الشبهات الثلاث الأخيرة، فأذكر فيما يلي أصولاً ثلاثة في الجواب عليها.

أما الأصل الأول؛ فهو: (إن الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن)[57].

فالكافر؛ غايته الدنيا وهي منتهى أربه، فهو يعمل فيها عمل مقيم أبداً، أما المؤمن؛ فهو كعابر سبيل لا بد من ارتحاله اليوم أو غداً، كالذي في السجن ينتظر الفرج.

لهذا السبب كان السلف مع إقبال الدنيا عليهم؛ كان أقصى مرادهم من الدنيا هو العمل الصالح والتزود بالعلم النافع، وأما الدنيا؛ فليست أهلاً لعمرانها فوق الحاجة.

وأما الكفار؛ فإنهم سعوا منذ القدم في تحصيل الدنيا وعمرانها لأنها جنتهم ومقصودهم فبرعوا في ذلك، وهذه آثارهم شاهدة على ما أقول مع قدم الزمن، كآثار الفراعنة في مصر، وآثار البابليين، وديار حجر وثمود وغيرها، وكما نرى اليوم من زخارفهم وعلومهم، وقد قال تعالى في محكم كتابه: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف: 33 - 35].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: (أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار، ولكننا لعلمنا بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا وحبهاً لها، لو أعطينا ذلك كله للكفار لحملق الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً)[58] اهـ.

فانظر رحمك الله إلى حال الكفار اليوم، فإنهم مع ما هم فيه من زهرة الحياة الدنيا ما أعطاهم الله زخارف الأرض كلها، وانظر إلى فتنة كثير من الملمين بهم، فكيف لو أعطاهم زهرة الدنيا كلها؟! وقال تعالى أيضاً: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [سورة الروم: 7].

فقد روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس في تفسيرها، قال: (يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الآخرة جهال).

---

[57] هذا نص حديث رواه مسلم والترمذي وغيرهما، وانظر في شرحه؛ شرح مسلم للنووي: 93/18، و بدائع الفوائد: 177/3، وله عدة تفاسير منها إن المسلم قيده إيمانه عن المحظورات والكافر مطلق التصرف، ومنها إن هذا باعتبار العواقب، فالمسلم ولو كان أنعم الناس في الدنيا فإنه بالإضافة إلى ما له في الجنة كأنه في سجن، والكافر ولو كان أشد الناس بؤساً في الدنيا؛ فذلك بالنسبة إلى النار جنة.

[58] أضواء البيان: 248/7.

وعن الحسن: (ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يحسن يصلي)[59].

فاعلم أن هذه الزخارف لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة؛ ما حَرَمَ منها سيد خلقه أجميعن صلى الله عليه وسلم وأعطاها لأعدائه.

فإنه لما صعد إليه عمر رضي الله عنه تلك المشربة، فرآه على صعيد قد أثّر في جنبه، ابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: (يا رسول الله، كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟!)، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متكئاً، فجلس وقال: (أفي شكٍ أنت يا ابن الخطاب؟!)، ثم قال: (أؤلئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا)، وفي رواية: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟).

وأما الأصل الثاني؛ فهو: "إن الكفار كانوا منذ القدم - ولا زالوا - أكثر من المسلمين عدداً وعُدداً وعمراناً".

وهذا ظاهر جداً بالتتبع والاستقراء، حتى بعد نتشار الإسلام، ومن شك في ذلك فليقرأ التاريخ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وغيره؛ إن الكفار كانوا في قتالهم مع المسلمين أكثر عدداً وعدة دائماً، والذي يقرأ ويدرس أمهات معارك المسلمين يعلم جيداً أن الفرق بين القوتين يكون دائماً كبيراً وفي صالح الكفار.

لذلك كان عمر رضي الله عنه يوصي جيوشه فيقول: (إنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا).

والله ما فتحوا البلاد بكثرة أنىّ؟ وأعداهم بلا حسبان

فمما يدل على أن قوة الكافرين كانت دائماً أكبر من قوة المسلمين - مادياً - أمور كثيرة، منها:

- لو درست معركتي القادسية واليرموك والتي بها قضى الصحابة رضوان الله عليهم على قوتي فارس والروم، لتبين لك أن أعداد الكفار وعتادهم أضعاف أضعاف أعداد

[59] ذكر الشنقيطي رحمه الله تعالى على آية الروم هذه كلاماً قيماً جداً لولا طوله لنقلته بنصه، انظر أضواء البيان: 477/6.

المسلمين وعتادهم، كذلك الأمر فيما بعدها من المعارك كنهاوند، وكالفتوح التي أتت بعد الصحابة، وكالمعارك المتأخرة مثل حطين والزلاقة وغيرها، هذا فيما يتعلق بالقوة العسكرية.

– أما الناحية العمرانية، فنكتفي بمثالين:

أما الأول: فإن هارون الرشيد حاول هدم "أيوان كسرى"، فلم يستطع، والهدم أيسر – ولا مقارنة – من البناء.

والثاني: أن المأمون بعده أيضاً حاول هدم الأهرامات، فلم يستطع كذلك.

وما ذلك إلا لقوة هذين الصرحين وقدرة من بناهما[60].

– وكذلك فإن الصحابة قد استفادوا من الفرس من الناحية التنظيمية، الدواوين وكالكتابة ونحوها، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أميين في الجملة، ولم يكن ذلك نقصاً في حقهم بل كان إلى الكمال أقرب، كما أن كمال النبي صلى الله عليه وسلم في أميته.

فالحاصل؛ إن قوة الكافرين اليوم وتمكنهم من هذه العلوم ليست غريبة عنهم، بل إن تمكنهم فيها منذ القدم، وإن حصل تطور عن ذلك، ولكن المؤكد أنهم برعوا فيها منذ القدم، وقد قدمت بعض الشواهد على ذلك.

وقد يرد سؤال عند هذا، وهو؛ إذا كان الكفار أقوى من المسلمين منذ القدم عدداً وعتاداً وعمراناً، فكيف كانت الدولة بالأمس للمسلمين واليوم للكافرين؟

فجواب هذا يكون بذكر الأصل الثالث؛ وهو: "إن قوة المسلمين بإيمانهم لا بدنياهم".

وهذا ظاهر، ولو ذهبت أستقصي الآيات والأحاديث والآثار التي تثبت هذا الأصل لطال المقام، لذلك تجد أن الإيمان إذا ثبت وتأصّل في النفوس؛ فإن الله سبحانه ينصر عباده كما فعل في معارك الرسول صلى الله عليه وسلم وإمداده لهم بالملائكة في بدرٍ وحنين.

لذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله).

---

[60] ولذلك عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً [ص 358] بأن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول، وذكر هذين المثالين في مقدمته.

ولما كان الصحابة رضوان الله عليهم النموذج الأمثل في تطبيق الإسلام؛ كانوا – كما قال عنهم بعض التابعين –: (لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء).

هذا وإن قتال حزب الله بال   أعمال لا بكتائب الشجعانِ
والله ما فتحوا البلاد بكثرة   أنّى؟! وأعداهم بلا حسبانِ

فعزة المسلمين وقوتهم بإيمانهم، فإنهم ينصرون به، وما السلاح إلا وسيلة فقط، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى قال: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} [سورة الأنفال: 60]، فإنه سبحانه أمر بإعداد المستطاع فقط، ولم يأمر المسلمين بأن يعدو من السلاح مثل ما أعده الكافرون أو أكثر من ذلك، فلو لم يستطع المسلمون إلا على الحجارة فأعدوها مع إيمانهم الصادق؛ لنصرهم الله، ولعل هذا الأمر يتضح بإمداد الله سبحانه للمسلمين بالملائكة في بدر وحنين، وكما مشى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وجنده على الماء وكذلك العلاء بن الحضرمي، ولعل هذا الأمر يتضح بصورة أكثر في مساعدة الحجر والشجر للمسلمين في قتالهم مع اليهود قبل قيام الساعة – كما ورد في الحديث الصحيح –

لذلك فاعلم أن ذل المسلمين اليوم ليس لجهلهم بهذه العلوم، فإنهم كانوا في القرون المفضلة – وقت الحضارة – أجهل بها، ولكن هذه الزلة ضربها الله عليهم لما أعرضوا عن دينه، أن تسليط الكافرين اليوم على المسلمين إنما هو فتنة لهم وعقوبة.

والله أعلم

وبعد...

فإن السبيل للرجوع إلى حضارة الإسلام الأولى؛ إنما تكون بإتباع السلف في العناية بالأعمال الصالحة والعلوم الشرعية والقيام بالجهاد والزهد في الدنيا.

وقد أخطأ كلَّ الخطأ؛ من رأى أن السبيل إنما يكون بأخذ صناعات الكافرين وتعلمها وتعليمها ونشرها بين المسلمين، لأنه لا بد من معرفة الداء قبل أن يوصف الدواء،

وداء المسلمين اليوم هو البعد عن دين الله وعن منهج السلف، فلو أنهم التزموا دين الله على منهج السلف لكان هذا الدواء بإذن الله تعالى.

وكما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

والله أعلم
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

